

## السؤال

أريد الهداية وطريق الصلاح ولا أعرف . أحاول ولا أستطيع . كلما أحاول نفسي الأمانة بالسوء تغلبني ، والشيطان يُدَلِّلُ لِي المعصية . ماذا أفعل ؟

## الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أصدقك القول - أخي السائل - أنني أحسست بالمشاعر التي يكنها قلبك من خلال كلماتك المعدودة في السؤال ، رأيت فيها صدقا ورغبة ورهبة ، ولمست فيها حرصا وحبا وخوفا ، كما سمعت لها أنينا أحدثته قيود الهوى والشيطان . ولكنني سرعان ما تعجبتُ من هذه النفس ، وتساءلتُ إن كانت تنتظر اللحظة الفاصلة التي تنتقل بها فجأة نحو الهداية ، من غير أن تسعى أنت أو تتعب في هذه السبيل !!

أو كانت تنتظر اللحظة الفاصلة حقا ، بين وقت الإمهال ، ووقت النهاية ، وضياح الفرصة بهجمة الموت :  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ( بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ ) رواه الترمذي (2306) وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وضعفه الألباني .

والحقيقة التي يجب عليك إدراكها ، والإيمان بها ، والتأملُ فيها أولا وأخيرا ، هي أن التغيير يبدأ منك ، ومنك فقط ، من أعماق نفسك ، وإرادتك وسعيك ، وليس بكلمات يكتبها لك المفتي ، ولا بتعليمات يرسلها إليك ناصح ، بل ولا بعزيمة مترددة فاترة على الهداية ، تحركها العاطفة المؤقتة ، فلا تلبث أن تنطفئ وترجع إلى عهدنا الأول .

فإذا وعيت ذلك أدركت أنك تعيش في هذه الحياة في معركة واحدة ، أو لنقل في تحدٍّ واحد ، يُحْتَمُّ عليك أن تجمع له همك وفكرك وجهدك ، وتبذل في سبيل الفوز فيه كلَّ حيلةٍ ووسيلةٍ ، وستجد نفسك مضطرةً إلى السؤال كثيرا ، والبحث كثيرا ، والقراءة كثيرا ، كي تصل إلى السر الذي تتحكم فيه بداخلك ، فتطفئ من خلاله نوازع الشر والكسل والفشل ، وتوقظ به قيم الخير والنجاح والعتاء .

وملخص ذلك في جملة سهلة يسيرة على من يسرها الله عليه ، بل في كلمة واحدة ، هي :

" القوة " القوة في العزيمة ، والقوة في الضبط والسيطرة ، والقوة في الاحتمال .

وأكاد أجزم لك أخي السائل أنك إن تفكرت في هذا المعنى " قوة النفس " ملكت به مفاتيح الخير كلها إن شاء الله .

والموعظة إنما يقصد بها بعث هذا المعنى من جديد ، كي يتخلص القلب من أغلال الوهن والضعف التي تحول بينه وبين

الهدى والنجاة ، ولعلي هنا أرسل لك ببعض الكلمات التي تخاطب بها نفسك ، لعلها تبتث فيها روح الهداية والثبات :  
 " يا نفس ! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنت صائرةً إلى إحداهما على القرب ؟! فما لك تفرحين وتضحكين  
 وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ؟! وعساك اليوم تُختطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ، ويراه الله  
 قريبا .

أما تعلمين أن كلَّ آتٍ قريب ، وأن البعيدَ ما ليس بآتٍ ؟!

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ؟ وأن كلَّ نفسٍ من الأنفاس يمكن أن يكون  
 فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضي إلى الموت ، فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب  
 إليك من كل قريب ؟!

أما تتدبرين قوله تعالى : ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ \* مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ  
 يَلْعَبُونَ \* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ) الأنبياء/1-3

فإن كنتِ يا نفسُ قد عرفتِ ذاك وآمنتِ به ، فما لك تُسوِّفين العمل ، والموتُ لك بالمرصاد ؟!

أرأيتِ لو سافر رجل لِيَتَفَقَّهَ في الغربية ، فأقام فيها سنين متعطِّلاً بَطَّالاً ، يَعدُّ نَفْسَهُ بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى  
 وطنه ، هل كنتِ تضحكين من عقله ؟!

ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، ففعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تشتغلين فيه بذلك ؟  
 أفنتنظرين يوما يأتيك لا تعسرُ فيه مخالفةُ الشهوات ؟ هذا يومٌ لم يخلقه الله قطُّ ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنةُ قطُّ إلا محفوفةً  
 بالمكاره ، ولا تكون المكارهُ قطُّ خفيفةً على النفوس ، وهذا محالٌ وجوده .

أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين : غداً ، غداً ؟ فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ؟ أما علمتِ أن الغد الذي جاء  
 وصار يوماً كان له حكم الأمس ، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأنَّ الشهوة كالشجرة الراسخة  
 التي تعب العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها  
 إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ، ويزد القالع ضعفا وهنا .

ويحك يا نفسُ ! لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظري لنفسك ، فما أمرُك بمهمٍّ لغيرك ، ولا تُضيِّعي  
 أوقاتك ، فالأنفاسُ معدودة ، فإذا مضى منك نفسٌ فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ،  
 والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها .

ويحك يا نفسُ ! ما أراكِ إلا ألقت الدنيا وأنست بها ، فعسرَ عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين في نفسك  
 مودتها ، فحسبي أنك غافلةٌ عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنةٌ بالموت المفرق بينك وبين  
 محابِّك .

ويحك يا نفسُ ! أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند  
 المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ؟

أوماً تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا ؟ وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما ترينهم كيف

يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ؟ فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا ؟

ويحك يا نفس ! ما لك إلا أيام معدودة ، هي بضاعتك إن اتجرت فيها ، وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفرع الأكبر بين يديك ؟

فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله ، سره وعلايته ، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله ، بأي لسان تجيبين ، وأعدي للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا ، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوالٍ لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصَبٍ لدار نعيم وخلود ، اعلمي قبل أن لا تعلمي ، اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار ، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسعيك لها اضطرارا ، ورفضك لها اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتداء ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أتى ، ويبتغي الزيادة فيما بقي .

واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يُسار به وإن لم يسر .

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية .

فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تنزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم يزل فيقلة المخالطة والكلام ، فإن لم يزل فبصلة الأرحام واللفظ بالأيتام ، واستعيني بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمني الاستغاثه ، ولا تملي طول الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، والمطلوب كريم ، والمسؤول جواد ، والمستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل . " اختصارا من "إحياء علوم الدين" (422-4/416)

أسأل الله أن ينفعنا وإياكم بكلام الصالحين ، وموعظة الصادقين .

والله أعلم .